

شخصيات تاريخية :

## ثيموستوكل

THÉMISTOCLE

للأستاذ محمد الشحات أيوب



كانت بلاد اليونان في أوائل القرن الخامس قبل الميلاد ، محاطة بدول فنية ناهضة كدولة الفرس في الشرق التي قضت على الإمبراطوريات الكبرى القديمة في مصر وكلدونيا وسوريا وليديا ، وكدولة القرطاجنيين التي نهضت في شمال إفريقيا ، وأخذت تبسط سلطانها على البلاد الجاورة لها في الجزء الغربي من البحر الأبيض المتوسط ، وكدولة روما الناشئة التي نارت في وجه الأتراكين ، وأخذت تكون لنفسها سلطاناً واسماً في شبه جزيرة إيطاليا . وقد اتفق الفرس والقرطاجنيون ، واتفق القرطاجنيون والأتراكين ، على وضع حد لاستعمار اليونان بعد هذه الحركة التي كان من نتائجها انتشارهم في معظم أجزاء البحر الأبيض المتوسط

لذلك كان لا بد من أن ترتطم قوة الفرس بقوة اليونان في الشرق ، وقوة القرطاجنيين والأتراكين مع اليسونان في الغرب . وقد أراد الفرس الانتشار غرباً ، فوجدوا أمامهم اليونان ستيبين في غرب آسيا الصغرى ، فأخضعهم لسلطانهم ، ولكن هؤلاء اليونان ثاروا على أسيادهم الفرس ، وطلبوا المونة والمساعدة من إخوانهم يونان القارة الأوربية ، فلم يلب نداءهم إلا دولتان هما : أثينا وإرسيزي اللتان وجهتا حملة لتخليص إخوانهم من يبر الفرس . من أجل هذا حقد الفرس على هاتين الدولتين ، وصمما على مفاقمتها والانتقام منهما ؛ فكانت ثورة اليونان في غرب آسيا الصغرى بدء عهد نزاع خطير ، يبرف باسم الحرب الليدية بين قوتين لا يستهان بهما وهما : قوة الفرس وقوة اليونان وقد استمر النزاع مدة طويلة بين هاتين القوتين . ونحن لا يبدنا اليوم من هذا النزاع إلا تلك الحروب التي نشبت في أول القرن الخامس قبل الميلاد ، ولا يهمننا منها إلا تلك الشخصية العظيمة ، شخصية « ثيموستوكل » التي لهدت دوراً مهماً جداً في ترجيح كفة اليونان على كفة الفرس

ولكي نتمثل أهمية الدور الذي لعبه ثيموستوكل ، يجب أن نعلم أن اليونان لم يكونوا متفقين فيما بينهم وبين أنفسهم على الخطة التي يجب عليهم أن يتبموها . كانوا فريقين : فريقاً منهم مع الفرس يساعدهم ويشد أزهم ، وفريقاً آخر في صف الوطن يعمل للدفاع عنه وللتمكنين من استقلاله ، وهم بعد ذلك لم يكونوا دولة متحدة قوية تقف صفاً واحداً أمام دولة الفرس ، بل كانوا دولاً صغيرة تتنافس فيما بينها وتحقد كل منها على الأخرى ، ثم إلى جانب هذا وذاك كانت كل دولة على صفرها منقسمة على نفسها في الداخل تتنازعها الأهواء والأحزاب ، فكان النزاع قوياً جداً بين الأرستقراطيين والديمقراطيين في أثينا ، وشديداً جداً بين الملكين والإينفور الخمسة في اسبرطة ؛ وكذلك كانت الحال في أرجوس وكورنث وتساليا وغيرها ، فجاء ثيموستوكل واستطاع أن يوحد بين هذه الأشعات المتناقضة وكون منها جبهة قوية وقفت أمام الفرس وصدهم عن أرض اليونان ، بل وأحرزت عليهم انتصاراً عظيماً هو انتصار موقعة « سلامين » . فالشخص الذي يستطيع أن يجعل بلاده محرز هذا النصر الحاسم وهي على هذا النحو من الانقسام والفرقة لا شك يعد من أكبر للشخصيات في التاريخ

وقمت الحرب الميدية الأولى في عام ٤٩٠ ق . م ووجه الفرس حملتهم الأولى ضد أثينا وبلاد اليونان في هذه السنة ، فتصدت لهم القوة الأثينية وعلى رأسها مليتاد يساعده بعض اللقواد مثل طالها كوس وثيموستوكل وأرسنيد ، وتمكنت هذه القوة من صدم وإلحاق الهزيمة بهم في موقعة ماراثون الكبرى ، فارتد أسطول الفرس بعد ذلك عائداً إلى بلاده . انتصرت أثينا في هذا الدور الأول وكانت للشخصية اللتالية هي شخصية مليتاد ؛ أما ثيموستوكل فلم يكن له شأن كبير حينئذ ، إنما كان يقوم بدور ثانوي في هذه المعركة ، إذ وضع هو وأرسنيد على رأس الوسط في الجيش ، أما كبار اللقواد مثل مليتاد فقد وضعوا على رأس الجناحين لأن خطة الجيش الليوناني كانت ترى إلى القيام بحركة تطويق لحصر جيش الأعداء

هزم الفرس في هذه الموقعة ؛ ولكن (دارا) ملكهم لم يكن بالشخص الذي يرضى عن الهزيمة ، وإنما أخذ يعد للمدة للانتقام ، ثم مات دون أن يحقق هذا للنرض ، وخلفه ابنه أجررئيسيس تاركا لهذا الابن عبثاً تعيلاً ومهمة خطيرة ، ولم يصب أجررئيسيس

هذا من النجاح أكثر مما أصاب أبوه من قبل ، ولم ينجح في النيل من الليونان والانتقام منهم بالرغم مما عرف عنه من مضاء المزيمة وقوة الإرادة وحدة الذكاء ونشاط الشباب . هزم كما هزم أبوه من قبل ، وانتصر عليه الليونان لأنهم أتوا من الحظ للسيد ما أوجد لهم شخصية عبقرية هي شخصية تيموستوكل التي عرفت كيف تقبصر للأمر ، وتضع الخطط الحربية الماهرة استعداداً لهذا المرآك المنيف . وكانت هذه المزيمة سبباً لازدراء الليونان به ، واحتقارهم له ؛ فتحدث عنه « إثيل » في تراجمه الرائمة « الفرس » وصوره كما صوروه غيره من كبار الكتاب اليونانيين في صورة بشمة : صوروه كأنه رجل مجنون أصيب في عقله ، أراد أن يتسأى إلى صف الآلهة فاعتقد نفسه منهم ، فتكبر وطني ، ففقدت عليه وتربصت له ، وجملته بضل السبيل ، ويرتكب من الآثم والناتبات ما كان من الأسباب التي أدت إلى هزيمته وكان الحزب المسيطر على شؤون الحكم في أثينا في ذلك الوقت هو الحزب الديمقراطي ، وهو الحزب الذي استطاع أن يقودها إلى النصر . وكان على رأس هذا الحزب زعيمه تيموستوكل الذي إليه يرجع الفضل الأكبر في إحراز النصر في موقعة « سلامين » ، لذلك كان هذا النصر من الأسباب التي قوت من شأن الديمقراطية الأثينية وجعلتها تركز على أساس معين حتى بلغت أوجها في عهد بركليس لم يكن تيموستوكل من الأشراف ولا من الأرستقراط ، بل ولم يكن من الطبقات الوسطى ، وكانت المادة في القديم ألا يولى للشخص مهام الدولة إلا إذا كان من أبناء الليونات الكبيرة . لذلك كان من أعجب الأمور أن يستطيع شخص كتيموستوكل أن يصل إلى أعلى المناصب في الدولة وهو فرد من أفراد الشعب ، فلم يتعود الناس من قبل أن يتزعم الحزب الديمقراطي شخص من أبناء الشعب ، وإنما كانت المادة أن يتزعمه أفراد من الأرستقراط الذين كانوا يميلون إلى الشعب ويودون إنصافه ورفع اللطم عن كاهله ؛ بل كان تيموستوكل أكثر من هذا ، كان من أصل أجنبي ، ونحن نعرف أن الشعوب القديمة كانت تنظر نظرة خاصة إلى الأجانب لاعتبارات أساسها الدين ، كما وضع ذلك خير توضيح المؤرخ الفرنسي الشهير « فيستيل دي كولايج Fuastel de Coulanges » في كتابه عن « المدينة القديمة La Cité Antique » لذلك كانوا في مركز خاص من الوجهة القانونية ، فلم يكن يسمح لهم بالتدخل

في شؤون البلاد الداخلية إلا إذا اكتسبوا حقوق المدينة وهي ما نعرفها اليوم « بحقوق التجنس الجنسية الأهلية » . كان أبو تيموستوكل من هذا النوع : كان أجنبياً ولكنه اكتسب صفة المواطن بما خوله له دستور كليستين من حقوق ، وكانت أمه أجنبية أيضاً ، ولكنه تمكن ، بالرغم من ذلك ، من أن يتولى أكبر المناصب في الدولة ، وهو صغير السن ، كمنصب الأركون في عام ٤٩٣/٤٩٢ ق . م . وسنه لا تزيد على ثلاثين عاماً ومنصب الاستراتيج في عام ٤٩٠/٤٨٩ وقد بلغ من العمر ثلاثة وثلاثين عاماً ، لأنه أوتي من اللواهب والصفات ما جعله يصل إلى الحكم في سهولة ويسر ؛ إذ كانت ذكياً إلى أقصى درجة من درجات الذكاء ، وكان سريع الحكم في ثقة واطمئنان ، وكان خطيباً بارعاً ذاق اللسان فصيحاً ، وكانت موهبته من هذه الناحية موهبة طبيعية لم تأت عن طريق المراساة ولا عن التجربة ، إنما آتاه الله حظاً عظيماً من الفصاحة والبلاغة جعله يسيطر على مواطنيه ، فيملك عليهم مشاعرهم ويوجههم أي شاء ، فأسلحوه للقياد ، وجملوه يتربع على مكان الزمامة فيهم . وقد تمكن من هذه الزمامة واستأثر بها ، حتى أقتد بلاده من خطر دام كاد يقضى عليها ، فأحرز لها نصراً حاسماً نقلها من دولة سفري إلى دولة كبرى لها امبراطورية ضخمة ، وتتحكم في موارد البلاد المجاورة وتشرف على جزء كبير من شرق البحر الأبيض المتوسط . فتكبر وتفتخر ، وطني وتجبر ؛ ولكنه كان رجلاً لا كالرجال ، وعبقرياً لا كالعبقريين . تنظرنا عبقرته إلى التناضى عن كثير من عيوبه ، لأن هذه العبقرية من النوع الذي يجمنا نفعنا أمامه إجلالاً واحتراماً . وهو كثيره من الشخصيات العظيمة التي أحدثت انقلاباً هائلاً في تاريخ بلادهم مثار نزاع بين كثير من المؤرخين ولا سيما القدماء منهم مثل أبي التاريخ هيرودوت ، والمؤرخ الأول توسيديد : قسا الأول عليه قسوة شديدة ، فأصدر عليه حكماً فيه شيء كثير من الهمد عن جادة الحق ، أما الثاني فكان أقرب إلى الاعتدال : وقف إلى صفه ودافع عنه دون تحفظ ولا احتياط

نظر تيموستوكل إلى بلاده فوجدها عبارة عن شبه جزيرة تحيط بها المياه من جميع الجهات إلا جهة واحدة ، ووجد أن الخطر عليها عظيم إذا ما أتى العدو إليها ينزوها عن طريق البحر فينزول إلى البر — كما فعل الفرس — قوات هائلة ، لا يستطيع الأثينيون لها رداً ولا صدأ ، إلا إذا كانت لديهم قوات بحرية

إلى المواد الغذائية التي قلت بنسبة عظيمة بمد إقبال الأسواق الاقتصادية في الخارج في بلاد معادية لبلادهم ، كبلاد الليوسيين والمشاليين ، أو في بلاد خصمت للفرس مثل بلاد شبه جزيرة الكلسيديك والبحر الأسود ومصر . فلم يكن بمد ذلك أمام أئينا إلا سوق اقتصادية واحدة تستطيع أن تقوم منها ، وهي سوق الغرب في سقلية وبلاد اليونان الكبرى ؛ وأئينا لا تستطيع أن تستورد من هذه البلاد القمح والمواد الغذائية الأخرى إلا إذا كان لديها أسطول عظيم يحمل لها ما هي في حاجة إليه

ثم إن نيموستوكل أثر على مواطنيه بحجة أخيرة وهي من أقوى الحجج تأثيراً على ذهنية الشعب — إن صح أن للشعب ذهنية — فبين لهم أن الأسطول الزرع إنشاؤه سيكون مورداً لإعالة فقراء الأمة من الذين لا يجدون عملاً ما ، وهم أصحاب الطبقة الرابعة من الشعب السبابة طبقة « لثيت Les Thètes » فن هذه الطبقة سيجند الملاحون والبجارة الذين من دولهم لا يستطيع الأسطول أن يقوم بمهمته على الوجه الأكمل

اقتنعت أغلبية الشعب بهذه الحجج المختلفة ؛ ولكنهم تساءلوا : من أين لنا بالمال القى يساعدنا على بناء هذا الأسطول ، ونحن نعرف أن الأسطول يحتاج إلى مال كثير ؛ لم يقفوا كثيراً عند هذا السؤال ، إذ ساعدتهم الحظ في ذلك الوقت فوجدوا المال اللازم ، وجدوه في مناجم « لوربون » بالمتور في عام ٤٨٣ — ٤٨٢ على عمق ثالث من عمروق للفضة قائم بين طبقتين من الطبقات الأرضية ، كطبقة « لثيت » وطبقة « لككبير » ، وكان هذا مصدر ثروة كبيرة ، وعلى الأخص بمد أن نضب معين العرقين السابقين . وهنا اختلفت آراء الشعب بصدد هذا المصدر الجديد من مصادر الثروة ، فانقسمت الأمة قسمين : قسم على رأسه أرشيد الزعيم المعروف يريد توزيع هذا الإيراد — وهو إيراد منتظم — بين المواطنين جميعاً ( ويتراوح هذا الإيراد بين ٥٠ ، ١٠٠ تالانت ) فأذا وزع على هذا النحو نال كل فرد ما يقرب من ٢٠ درانحة ( والتالانت فيها ٦٠٠٠ درانحة ) . وقسم آخر على رأسه نيموستوكل يرى أن تميز الدولة لكل مائة من كبار الأغنياء « تالانت واحدة » على أن تكلف كل وحدة من هذه الوحدات المثوبة ببناء سفينة ، حتى إذا اجتمعت هذه السفن بمد بنائها كانت نواة طيبة للأسطول الأئيني . طالت المناقشات بين الفريقين وزاد النزاع حدة بينهما ، ولكن نيموستوكل وأنصاره تغلبوا

تستطيع أن تنازلهم نيمدم عن أرض الوطن ، فأخذ يملن بين الأئينيين أن مستقبل أئينا على البحار . وقد خالفه للكثيرون في ذلك ؛ ولكن التجارب والحوادث التي وقعت فيما بمد أيدت رأيه وصدقت نظريته . رأى كثير من أبناء جلادنة أن موقمة ماراتون هي آخر اللواقع بين للفرس واليونان ، وأنهم ماداموا قد اتصروا فيها ، وما دام اللدودة قد اتمد عن بلادهم فلن يعود إليهم أبداً . لذلك وقفوا واطأوا ؛ أما هو فكان يرى غير هذا الرأي ، كان يرى أن ماراتون ما هي إلا خطوة من خطوات النزاع بين الفريقين ، وأن للفرس لا شك راجعون من جديد للانتقام لأنفسهم من الهزيمة الساحقة التي لحقتهم من قبل ، وذلك لوقوفه على بعض أخلاقهم ولمرفته ببعض طاداتهم . من أجل هذا رأى أن يمكن لأئينا على للبحر بأن يؤسس لها أسطولاً بحرياً ضخماً يحمل لها السيادة البحرية من دون منازع . ورأى أيضاً أن يعمل على تحويل للشعب الأئيني من شعب حربى بى ، إلى شعب حربى بحرى ، من شعب مشاة وفرسان ، إلى شعب ملاحين وبجارة ، ولكن هذا وحده لا يكفي ، فلا بد إلى جانب هذا من اختيار اللوائى النيمة التي تصلح لإرساء الأسطول ، واللواقع الطبيعية التي إن حصلت صلحت مرا كز مهمة للدفاع عن البلاد . فمدل عن ميناء فالير للكشوف لتعرضه للرياح والأطير ، وامدم صلاحيته من الناحية الطبيعية ، إلى ميناء يبره وحوله خلجان طبيعية منيمة تكليج « تريا » وخليج « موينخيا » ؛ وهذه اللخلجان تصلح هي الأخرى لأن تكون موانى جيدة . فأخذ يحصن هذا الميناء الجديد ، وساعده على القيام بهذه الأعمال أعمال اللتحصين — أن كان يتولى مراكزاً من مراكز القيادة — وهو مركز الاستراتيجية Stratège في عام ٤٨٩/٤٩٠

ذاعت آراء « نيموستوكل » وانتشرت بين الأئينيين ، فانضم إليه كثير منهم يؤيدونه ويساعدونه على تكوين هذا الأسطول البحرى الضخم الذى يحمل بتأسيسه ، بمد أن سموا ما سموا عن استمداد للفرس العظيم ، وقرب قيامهم بالهجوم على وطنهم ، ومد أن رأوا ما رأوا من هذا النزاع القى يهدد بلادهم بالخطر بين أئينا وأرجينا ، وفي هذا النزاع لم تستطع أئينا إحراز النصر إلا بمد صعوبة كبيرة ، بمد أن أعارتها كورنت عشرين سفينة من أسطولها ، فأثر الخطر للفرسى والخطر الأرجينى عليهم . وقد زاد عدد المؤيدين لنظرية « نيموستوكل » زيادة هائلة بمد ما وجد الأئينيون أن وطنهم أصبح في حاجة شديدة

ولكنه تناهى عن ذلك ورضى أن يعمل تحت إمرة أمير البحر الأسبرطى «إريبياد» بل وأيده كل التأيد، مع أن «إريبياد» هذا كان دونه في شؤون البحر، ثم بذل له من النصح والإرشاد في موقعة سلامين الكبرى ما يحملنا على أن تقارن بين موقفه هذا وبين موقف سيف الإسلام خالد بن الوليد الذى رضى أن يجاهد في سبيل الإسلام تحت قيادة أبي عبيدة بن الجراح مع أنه يفوقه في الفنون الحربية، ومع أنه كان يتولى شؤون القيادة قبله على نفس الجيش الذى كان يحارب في صفوه. وقد رضى كل من ماند وئيموستوكل بهذ الأنهما لا ينظران إلى مصالحهما الشخصية، بل ينظران نظرة كلهما جلال وجمال. هي النظرة إلى المساحة العامة ووضعها في السكان الأول من اهتمامهم ورعائيتهم. ئيموستوكل من الرجال الذين يفضلون وطنهم على أشخاصهم ويتماولون بمطامع بلادهم على مقامهم للشخصية، لذلك كانوا أبطالاً حقاً. ومن أجل هذا السبب استطاعوا أن يكونوا عند حسن ظن مواطنيهم بهم، فكونوا لأنفسهم مجدداً لا زال باقياً على الحياة، واسماً لا يزال صداه يرن في آذاننا حتى اليوم هذا في الخارج؛ أما في الداخل فقد رضى أن يستدعى منافسه ومعارضه أرشيد من المنفى، بل وأن يشركه معه في الحكم، فاتفق الاثنان معاً في ذلك الوقت العصيب الذى تعرضت فيه بلادهم لخطر الغزو الأمين. فبرهن ئيموستوكل بذلك أيضاً على أنه قادر على دفن الأحقاد للشخصية في سبيل رفع كلمة الوطن وعلى هذا النحو استطاع ئيموستوكل أن يحقق الوحدة داخل وطنه بالاتفاق مع خصومه ومعارضيه، وأن يحقق الوحدة في الخارج بالاتفاق بين بلاده والبلاد المنافسة لها وعلى رأسها أسبرطة، وأن يمد للمدة للتراخ المقبل ببناء أسطول قوى لا يستطيع لليونان إحراز النصر بدونه، فكان أن أعد البلاد على خير وجه لاستقبال قوى الفرس. واليونان مطمئنون إلى عدالة قضيتهم ورائعون إلى قواعدهم وزعمائهم، وهم يعملون آخر الأمر وبحاربون متحدون متراسين كالبنيان يشد بعضهم بعضاً في سبيل الدفاع عن الوطن المقدس كان هذا هو الدور الإعدادي الذى أظهر فيه ئيموستوكل مواهب المبكرة في الرظمة والتنظيم والإدارة. أما عن دور التنفيذ وهو الدور الحاسم الذى أحرز فيه لليونان جيماً للنصر المبين فله مجال آخر سنحدثك عنه في العدد القادم إن شاء الله

محمد السمات أئوب

في آخر الأمر، ونفى للشعب الزعيم المارضى أرشيد، وظفر ئيموستوكل وأتباعه بما أرادوه لوطنهم من هذا الأسطول الذى كان السبب الأكبر في إحراز النصر في أكبر معركة بحرية في القرن الخامس على الإطلاق وهي معركة «سلامين». وعلى هذا النحو حدث هذا الانقلاب الهائل الذى حول أثينا من دولة برية إلى دولة بحرية لها أسطول قوى ضخم كان هو السبب الرئيسى في بناء مجدها وعظمتها في القرن الخامس قبل الميلاد، فأصبحت أثينا بذلك دولة بحرية قادرة على الدفاع عن أرضها وعن أرض اليونان جميعاً ضد قوات كبيرة تفوقها في العدد والعدة وهي قوات الفرس. وقد كان ئيموستوكل في هذا رجلاً عظيماً، إذ استطاع أن يحدث هذا الانقلاب وأن يكون هذا الأسطول الذى جمع ما يقرب من مائتى سفينة والذي كان العامل الأساسى في بناء الأمبراطورية الأثينية البحرية أخذت أثينا بعد ذلك تعتمد للمعركة القادمة وهي واقعة ومعلمة إلى أسطولها للقوى، ولكنها تشعر تمام للشور أنها لا تستطيع وحدها مناهضة الفرس، بل كانت على يقين من ضرورة الحصول على تأييد أسبرطة والدول اليونانية الأخرى. وكانت أسبرطة أثنائية، بلت أثنائتها حداً عظيماً جداً عرفت في التاريخ القديم، فهي لا تهتم إلا بشؤونها وبشؤون شبه جزيرة البيلوبونيز الخاصة لسلطانها المستمكنة لأصراها، ولكنها فهمت أخيراً أن من مصلحتها الاتفاق مع أثينا والمدن اليونانية الأخرى التى تريد الدفاع عن اليونان لوضع خطة دفاعية مشتركة، لأنها أحسنت أن في انقصار الفرس ترجيحاً لكفة أعدائها كدولة أرجوس التى تناوئها العدا في شبه جزيرة البيلوبونيز، وإضعافاً لسلطانها ونفوذها هي؛ لذلك دعت إلى عقد مؤتمر يونانى عام، هو مؤتمر الجامعة لليونانية الأول، اشترك فيه عدد من اليونان، وامتنع عن الاشتراك فيه عدد آخر كان يؤيد الفرس، ولزم عددان جانب الحياد. وفي هذا المؤتمر العام الذى عقد بجوار مدينة كورنث نرى ئيموستوكل يلعب دوراً بارزاً أهمها هو دور الصلح والتوفيق بين اليونان، وتحقيق الوحدة بينهم جميعاً ضد العدو المشترك، فدمى صعباً حقيقياً للعضاء على أسباب الخلاف بينهم، وعلى الأخص بين أثينا وأرجينا؛ ثم إنه أظهر في هذا المؤتمر أيضاً بنداً في النظر وترفا عن المطامع الشخصية، فقبل أن يكون قواعد الأسطول والجيش من رجال أسبرطة، وأن يمثل هو في الأسطول مكاناً ثانوياً مع أن المنطق كان يقضى بأن تكون قيادة الأسطول لأثينا، لأنها أصبحت أقوى الدول اليونانية في البحر،